

رؤوف عباس حامد «1939 - 2008م» مؤرخ مصر اجتماعيا واقتصاديا

محمد عدنان البخيت

17 يوليو 2008



*تنتُ قد سمعتُ وقرأتُ للمرحوم رؤوف عباس حامد، قبل أن أنتقيه وزميلته نبلي حنا، الأستاذة في الجامعة الأمريكية في القاهرة، في شهر آذار عام 2004م في معهد العالم العربي، بدعوة من نادبة بغدادى، الأستاذة في جامعة أوروبا الوسطى في بودابست، وبسمة قضماني من القاهرة، ومنى نصولي من مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، للبحث في إقامة مركز لجمع الأوراق والمذكرات العربية للأفراد والأسر العربية المقيمة في أوروبا وبلاد المهجر. وحضر هذا الاجتماع عدد من المستشرقين، مثل: أندريه ريمون المؤرخ الفرنسي المشهور، ويوجين روجان، مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة أكسفورد، وفاروق مردم بك من معهد العالم العربي، بالإضافة إلى عدد من الباحثين العرب، منهم السيدة نادبة أرزني من تطوان، وهي تقوم على إدارة مجموعة أوراق أسرتها في المغرب، ومعظمها في إطار المراسلات التجارية مع بيوتات التجارة في أوروبا. وكان اللقاء آنذاك فرصةً للتعرف على أفكار ورؤى هذه النخبة، ومنهم المرحوم رؤوف عباس، وخاصة فيما يتعلق بالوثائق والأوراق التي تخص مصر، فلمستُ منه على الفور عنايته الكبيرة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمصر، وعرفتُ مدى اطلاعه على الدراسات المتعلقة بمصر في إطار البحث الجامعي باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

ولاحظتُ، مثل غيري، مدى التعاون والتنسيق والتفاهم بينه وبين نبلي حنا التي تقصّت تاريخ التجارة والاستيراد والتصدير في مصر، واهتمت بالتجارة الداخلية بين الأقاليم المصرية، وعُنيبت بتاريخ التجارة مع السودان بالإفادة من نهر النيل للشحن والاستيراد، فأذفت كتاباً باللغة الإنجليزية عن تجار القاهرة في العصر الوسيط، تناولت فيه سيرة أبو طافية شاهيندر التجار، وهو شامي الأصل، ترجمه إلى العربية رؤوف عباس، وصدر عن الدار المصرية اللبنانية عام 1997م. وترجم لها كتابها الثاني عن ثقافة الطبقة الوسطى في العصر العثماني من القرن السادس عشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي، الصادر عن وزارة الثقافة في 2004م.

وكان لقائنا الثاني بعد عامين، في شهر آذار 2006م، في بودابست، حيث اجتمعنا في جامعة أوروبا الوسطى، وأتحت لنا الفرصة للاطلاع على تجارب هنغارية في حفظ الوثائق والحفاظ عليها، وكان شعار القائمين على الوثائق في تلك الجامعة: "الوثائق في خدمة المجتمع المفتوح"، بعد أن كانت الأبواب موصدة في عهد السيطرة السوفياتية. ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن أهالي هنغارية يرفعون نسبهم إلى أصول تركية ضاربة في القدم، نذكر من علمانهم في الحقول التركية والعثمانية (L. Fekete) :الذي ساعد الأتراك في فهرسة سجلاتهم، وهذا ما يفسر لنا سر اهتمام الجامعات الهنغارية بالدراسات التركية والعثمانية. وخرجتُ مع رؤوف بصحبة أحد المستشرقين الهنغاريين الذي درس في مصر، في تجوال سياحي في بودابست، ونحن في طريقنا إلى القصر الملكي على قمة التلة المشرفة على نهر الدانوب، والتي كانت مقر والي ولاية بودين العثمانية في القرن السادس عشر، عندما كان الدانوب نهراً عثمانياً .

وفي ذلك اللقاء أهداني رؤوف نسخةً من مذكراته، وهي بعنوان: مشيناها خُطى، والعنوان مأخوذ من البيت المعروف، لشاعر عباسي اسمه أحمد بن فارس (ت حوالي 295 هـ/ 908م)، كما أفادني زميلي إبراهيم شبّوح: فُئشيناها خُطى كُتبت علينا - وموتت عليه خُطى مشاها؟ فأكببتُ على مطالعتها فوراً لأغتتم فرصة لقائنا الصباحي على الإفطار لأستفسر منه عن بعض الجوانب فيها، فوجدته صريحاً في قول الحقيقة ولو كانت جارحة، وبخاصة في أخبار معاناته في مسيرته الجامعية، وعن الأساليب المتبعة في التعيينات والترقيات في الجامعات المصرية، وبطبيعة الحال لم أدخل معه في التفاصيل، وبخاصة أنه أورد أسماء زملاء لنا نعرفهم جميعاً. ومن هنا، ينظر إليه البعض على أنه شخصية خلافية، وهذا يُفسّر لنا حجم الهجوم الذي وجّهه خصومه ضده بعد صدور مذكراته .

وُلد رؤوف عباس في 24 آب 1939م في مدينة بور سعيد الساحلية لأسرة مصرية عادية ومتواضعة، وكان والده يعمل في سكة الحديد، ويشير إلى أن عواطف والده كانت وفدية وأنه حظي بروية النحاس باشا، ومن هنا يمكن أن نفسر ولاء رؤوف للمرحلة انصارية بمصر واهتمامه بالطبقة العمالية فيها، وأولى هذا الموضوع جزءاً كبيراً من عنايته العلمية، فكتب رسالته للماجستير عن الحركة العمالية المصرية عام 1966م، تحت إشراف أحمد عزت عبد الكريم، صاحب سيمانر تاريخ العرب الحديث، الذي أصبح مدرسة لتخريج أجيال من الباحثين في مصر ومن العالم العربي، أقاموا دراساتهم على المصادر المحلية التي لم توظف قبل ذلك بشكل علمي، وعلى رأسها سجلات المحاكم الشرعية، ودفاتر الأوقاف، وقيود الكنائس وما لى ذلك. وتوسّع في موضوع الحركة العمالية بعاطلعه على الوثائق البريطانية، فأصدر دراسةً عن هذا الموضوع، وامتدّ

اهتمامه ليتناول موضوع النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الكبيرة، وتابع أعماله العلمية فكتب تاريخ جامعة القاهرة (1994م)، فكان بذلك رائداً في كتابة تاريخ أم الجامعات العربية التي تحتفل مصر اليوم بمرور مائة عام على تأسيسها، ومن ثم حوّل مذكرات محمد فريد التي تتناول تاريخ مصر ابتداءً من 1891م، وجاء إهداؤه للكتاب على النحو التالي: "إلى كل من آمن بمصر وضدّ في سبيلها، إلى ذكرى الزعيم محمد فريد."

لقد ترجم رؤوف الدراسات العلمية الرصينة التي تناولت تاريخ مصر، من أهمها رسالة الدكتوراة التي قامها ألكسندر شولش إلى جامعة هايدلبرج في ألمانيا، وجاء عنوانها بالترجمة العربية: مصر للمصريين - أزمة مصر الاجتماعية والسياسية 1882-1878 م، وصدرت الترجمة في القاهرة عام 1983م. ومن المفيد هنا أن نشير إلى دراسة مماثلة عن فلسطين لنفس المؤلف، ترجمها كامل العسلي، بعنوان: تحولات جذرية في فلسطين 1882 - 1856 م - دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وقام رؤوف عباس بترجمة كتاب المؤرخ الاقتصادي شارل عيساوي، عن اقتصاديات الشرق الأوسط، بعنوان: التاريخ الاقتصادي للبلاد الخصيب (1800 - 1914م)، وصدر في بيروت عام 1990م. ولم يقصر همّه العلمي على الكتب المتعلقة بمصر، بل ترجم كتاب موريس دوب Dobb بعنوان: دراسات في تطور الرأسمالية (صدر في القاهرة 2003م).

والملاحظ أن رؤوف كان قد أمضى الفترة من 1972 - 1973م، و1989 - 1990م، أسنّاداً متفرغاً في جامعة طوكيو في اليابان، باحثاً ودارساً لتجربتها، مقارنة بالتجربة المصرية التي كانت في القرن التاسع عشر سابقة للتجربة اليابانية، وأتبعها 2001م بكتاب بعنوان: التنوير بين مصر واليابان، فجاء ذلك مكملاً لدراساته السابقة التي نشرها في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، التي أصبح فيما بعد رئيس تحريرها، إضافة إلى عدد من المقالات جمعها في كتاب سماه: المجتمع الياباني في عصر مايجي (1868 - 1912م)، وصدر في القاهرة عام 1980م.

ونلاحظ من خلال جهوده، وفيما بعد جهود مسعود ظاهر من الجامعة اللبنانية، سعياً منهجياً من جانب العلماء العرب لفهم التجربة اليابانية، وليس مجرد الاستحسان عن بُعد وترديد أبيات حافظ إبراهيم عن الميكادو، ووصف الغادة اليابانية التي أصرت على العودة إلى ديارها قياماً بالواجب الوطني تجاه بلادها، ومشاركة شعبها في الحرب:

أنا يابانية لا أنتهي عن مرادي أو أدوق العطباً
أنا إن لم أحسن الرمي ولم تستطع كفاي تقلب الطبا
أخدم الجرحى وأقضي حقهم وأواسي في الوغى من نكبا
هكذا الميكادو قد علمنا أن نرى الأوطان أما وأبا

قد قدّرت الدولة المصرية الجهود العلمية المتواصلة لرؤوف عباس فمُنحته عام 1994م جائزة الدولة التقديرية، واليوم، وقد رحل عنا، نستذكر أعلاماً لامعين أسسوا مدرسة لدراسة تاريخ العرب الحديث، منهم محمد شفيق غريبال، ومحمد أنيس من جامعة القاهرة، وأحمد عزت عبد الكريم صاحب السمينار المشهور الذي تخرج منه أحمد مصطفى عبد الرحيم، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، وعبد العزيز نوار، وآخر الراحلين رؤوف عباس. رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته، ولهم الرحمة بمقدار ما سخوا وأعطوا.

hbc@ju.edu.jo

<http://www.al-majalla.com/ListNews.asp?DB=MainNews&NewsID=2021>